الثقافة:
ميدان تنظير وممارسة مستقل بذاته

د. محمود الذوادي *

«تمثل الثقافة أعلى الظواهر المعروفة مستوى أو تلك التي يمكن تخيلها الآن – في عالم الطبيعة»

من كتاب: Culture: Acritical Review of Concepts and Definitions / Alfred Kroeber and Clyde Kluckhohn

يشهد العالم اليوم تغيّرات هائلة في الفضاء الثقافي، ولا يقتصر ذلك على تغيّر الطابع الثقافي تغيّرا جذريا بسبب التغيّرات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والبيئية، والتقنية. بل لأن الثقافة نفسها أصبحت تمثل اليوم أكثر فأكثر عاملا مهماً في شئون الفرد، والمجموعة، والقطر والعالم ككل.

إن إعلان الأمم المتحدة عن العقد العالمي للتنمية الثقافية (١٩٨٨– ١٩٩٧) يعد أحد المؤشرات على الأهمية المتزايدة للثقافة في عالم اليوم. كما أن تعيين الأمم المتحدة واليونسكو للجنة حول الثقافة والتنمية يعتبر هو الآخر مقياسا لأهمية الثقافة. ويمثل قرار المكتب العالمي للتربية (١٩٩١) تخصيص ندوته العالمية الثالثة والأربعين لموضوع التربية والتنمية الثقافية (١٩٩٢) دليلا ثالثا على أهمية المسألة الثقافية اليوم. ومع ذلك، تتمثل أهم المؤشرات على قيمة الثقافة في المعنى المتزايد للثقافة في حياة الأفراد وشئون الأمم.

---

* *أستاذ علم الاجتماع، تونس.*

فمراجعة أدبيات الثقافة تشير إلى أن معظم تلك التعاريف هي عبارة عن تفرعات لعدد قليل وأساسي «لمفاهيم الثقافة». وهذا من شأنه أن يسمح بالتقليل من العدد الضخم من التعاريف، الأمر الذي يجعل الباحث أكثر قدرة على التعامل معها. وفي نطاق هذا البحث، فإن أهم تلك المفاهيم جميعا للثقافة هي المفاهيم الفلسفية، والفنية، والتاريخية، والأنثروبوليجية، والسوسيولجية، والبيئية، والبيولوجية، والكونية (الكوسمولجية)[٢] ومن الطبيعي أن تكون تلك المفاهيم ذات علاقات حميمة بالتخصصات المعرفية التي كان لها أكبر الأثر في الماضي وفي العصر الحديث على الثقافة، وتتمثل تلك التخصصات المعرفية في الفلسفة، والفنون، والتاريخ، وعلوم الاجتماع، والأنثربولوجيا، والبيئة، والبيولوجيا، والكوسمولوجيا.

ففي العهود القديمة استعمل الفلاسفة كلمة الثقافة بمعنى عملية تثقيف العقل، فالفيلسوف سيسرو Cicero عُرف عنه قوله: «الثقافة هي فلسفة العقل». أما في القرون الوسطى فقد وقع تصور الثقافة في مصطلحات فنية، مثل: فنون الشعر، والموسيقى، والمأساة، والأغاني المقدسة، والرقص، والكوميديا الملحمية، والغنائية. وقد استعملت كلمة الثقافة في النصف الأول من القرن التاسع عشر في معان تاريخية، مثل: «كل الذي تبقّى بعد نسيان كل شيء آخر، أو «إرث الماضي» ومع نهاية القرن التاسع عشر، تأثرت الثقافة بتصور علم الأنثروبولوجيا لها. فالثقافة، في تصور هذا العلم هي «نمط الحياة الكامل». وهو المعنى الذي استعمله عالم الأنثروبولوجيا الإنجليزي إدوار تيلار Sir Edward Burnett Tylor في تعريفه المشهور للثقافة. ففي كتابه أصول الثقافة (1871) Orogins of Culture عرّف تيلور الثقافة «بأنها ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة، والعقيدة، والفن، والأخلاق، والقانون، والتقليد، وأي مقدرات وعادات أخرى يتعلمها الإنسان كعضو في المجتمع»[٣] وفي القرن العشرين فقد عرفت الثقافة صيغا مختلفة حسب التخصصات المعرفية. فعلم الاجتماع نظر إلى الثقافة على أنها مجموعة من الرموز والقيم المشتركة، على حين

فليس هناك فقط عدد أكبر فأكبر من شعوب العالم التي يزداد وعيها بالدور الأساسي الذي تقوم به الثقافة في حياتهم، بل هناك أيضا عدد أكبر فأكبر من المجتمعات التي يزداد شعورها بتأثير الثقافة على ذاتيتهم وقيمهم ورفاهيتهم وبقائهم. ونتيجة لهذا الوعي المتزايد بالنسبة لأهمية الثقافة، فإن هناك جهودا متضافرة لتعزيز السياسات والممارسات والبرامج والإمكانات الثقافية.

ومن ثم تصبح الحاجة لتحديد طبيعة ومعنى وأهمية الثقافة أمرا مطلوبا في ضوء هذا الالتزام من أجل تقوية البنية التحتية للثقافة. فما الثقافة بالضبط؟ وكيف وقع تعريفها وتصورها؟ وما مجالها وموضوعها؟ وما مناهج دراستها وتقنياتها؟ وماذا نعني بمصطلحات مثل التنمية الثقافية، والسياسة الثقافية، والهوية الثقافية، والعلاقات الدولية؟ وهل الثقافة مهمة إذا ما نظر إليها داخل الإطار العام للأشياء؟ فمن المسلم به أن هناك حاجة ماسة لوضوح أكبر بخصوص مفهوم وتعريف ومجال وجوهر ومنهجية الثقافة؛ وذلك لكي نوسع ونعمق فهمنا الجماعي للدور الذي ينبغي أن تقوم به الثقافة في العقود القادمة. كما أن الأمر يحتاج إلى رؤية أوضع بالنسبة للثقافة كميدان للتنظير والممارسة في الماضي، وكيف ينبغي أن تكون في المستقبل؟

مفهوم الثقافة:

إذا أردنا أن تكلل جهودنا بالنجاح في سعينا لتحديد الدور الذي ينبغي أن تقوم الثقافة مستقبلا في العالم، فإنه من الضروري تحقيق إجماع عام حول ما يعنيه مصطلح الثقافة. فالأمر ليس بسيطا كما يمكن أن يبدو. فمحاولة مجموعة من العلماء توضيح معنى الثقافة منذ عقود عدة اكتشفت أن هناك أكثر من مائة وخمسين تعريفا مختلفا للثقافة.[1]

الحديثة في العلوم بصفة عامة، وعلمي البيئة والبيولوجيا على وجه الخصوص، كشفت عن أن الثقافة لا تقتصر على الجنس البشري فحسب، بل هي حاضرة الوجود في كامل عالم الطبيعة. وهكذا، بدأ مصطلح الثقافة يكسب معنى شموليا وكونيا. أي إن الثقافة كل كوني وإنها كل ما يحتوى عليه الكل. وهذا هو معنى إضفاء الشمولية على مفهوم الثقافة في أوسع معانيها(٥).

وبالتوازي لهذا الاتجاه ذي التصور الجزئي- الكلي للثقافة هناك الرؤية النخبوية- الشعبية للثقافة. فيمكن القول في هذا المضمار بأن كل التصورات الجزئية للثقافة هي تصورات نخبوية. إذ إنها تشمل البعض ولا تقبل البعض الآخر. فمثل تلك التصورات تلقى اليوم تحديات متزايدة. إذ إنها تتعارض مع فهمنا للواقع، وكذلك مع المكانة الكبيرة التي تحظى بها الثقافة في العالم الحديث. فهناك اعتراف متزايد اليوم بأنه من قبيل الأسطورة الاعتقاد بأن بعض الشعوب، والطبقات الاجتماعية، والبلدان لها ثقافة بينما البعض الآخر محروم منها. فبالتأكيد أن كل الشعوب، والطبقات الاجتماعية، والبلدان لها ثقافة. إذ إن الثقافة هي حق لكل المواطنين والمجتمعات بغض النظر عن تعليمهم ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية، أو موقعهم الجغرافي في العالم. فهذان الاتجاهان العالميان بخصوص التصور بين الشمولي والماواتي egalitarian للثقافة ليسا منسجمين مع تجربة الماضي والواقع المعاصر فقط. وإنما هما يتفقان أيضا مع مدلول كلمة الثقافة الذي بدأ يزداد استعماله من طرف سكان العالم. فالناس عندما يتحدثون حول كونهم «نتيجة لثقافتهم» اليوم، فهم لا يعنون بذلك أنهم حصيلة لأشكال فنونهم وموروث ماضيهم أو نشاطات أوقاتهم الترفيهية فحسب. وإنما يعنون أيضا أنهم نتيجة لنظمهم الاقتصادية، وأيديولوجياتهم السياسية، وأعرافهم الاجتماعية، وممارساتهم التربوية، وقيمهم الدينية، وتفاعلهم مع بيئتهم الطبيعية. وبعبارة أخرى، فإنهم حصيلة لكل شيء يوجد في ثقافتهم.

تصورها علم البيئة «على أنها طريقة تفاعل مع البيئة الطبيعية». أما علم البيولوجيا، فالثقافة عنده «هي نسق منظم لأجناس مختلفة»، وفي النهاية فعلم الكوسمولوجيا يعتبر الثقافة «رؤية كونية كاملة».

ونظرا لأن كل هذه المفاهيم المختلفة للثقافة تحظى باستعمال نشط في العالم اليوم، فإنه ليس من الغرابة في شيء أن يصبح مصطلح الثقافة مصدرا لكثير من الغموض والإشكالية والاشتباه وسوء الفهم. فليس هناك من أحد يدرك بكل يقين المعنى الذي تستعمل فيه مفردة الثقافة في الخطاب العام، أو في المحادثة الخاصة. فبينما يمكن أن يستعمل فرد، أو بلد، أو حكومة، أو مؤسسة ما كلمة الثقافة في معنى معين يمكن لفرد، أو بلد آخر، أو حكومة، أو مؤسسة أخرى أن يستعمل مصطلح الثقافة في معنى آخر مختلف تماما. هذا الوضع يجعل التوصل إلى إجماع عام حول مفهوم الثقافة ليس ضرورة منطقية فحسب بل أمرا حتميا.

ففي المحاولة للتوصل إلى ذلك الإجماع يصبح مفيدا تحليل الاتجاهات الماضية والمعاصرة التي اهتمت بمفهوم الثقافة. وهناك اتجاهان خاصان ينبغي التركيز عليهما بالتحليل من بين العديد من الاتجاهات الماضية والمعاصرة. فالاتجاه الأول، وهو اتجاه ماضوي، ينظر إلى الثقافة بصفتها مفهوما شموليا. وأما الاتجاه الثاني، وهو اتجاه معاصر، فهو يعطي للثقافة مفهوم مساواة[٤] Egalitarian Conception.

وكما أشرنا سابقا، فالثقافة نُظر إليها في البداية على أنها عملية تثقيف للعقل البشري. وأخذت بعد ذلك دلالات أوسع اقترنت بالفنون. وفي بداية القرن التاسع عشر أصبحت ذات دلالات أوسع من كل ما سبق. فأصبحت تَعْني الأشياء الرفيعة والقيمة في الحياة، أوكل موروث الماضي. ومع نهاية القرن التاسع عشر، عرف مصطلح الثقافة تغيرا عميقا فأصبح ذا دلالات أكثر رحابة تفيد أن الثقافة هي عبارة عن النمط الكامل للحياة، أو هي مجموع كل التجربة الإنسانية. وفي هذا القرن فقد أصبحت لكلمة الثقافة دلالات أكثر شمولية من كل ما رأيناه. فالبحوث المتقدمة

الصدد أن الدافع لتبني مثل ذلك التعريف الشمولي للثقافة لم يكن السبب فيه علماء الأنثروبولوجيا، والاجتماع، والفلاسفة، وبعض العلماء الآخرين فحسب، بل إنه قد تأثر أيضا بقوة العديد من الأقليات العرقية (الإثنية) والبلدان التي عانت من الاستعمار. فمن الواضح أنه ليس هناك عامل أهم من عامل خطر فقدان الثقافة من حيث توعية الناس بحق بمدى شمولية وكلية الثقافة.

فبمجرد إجماع الكثير من قادة العالم على التعريف الشامل للثقافة في ندوة مدينة مكسيكو يبشر بخير بالنسبة للمستقبل. فبينما يجب أن يكون للأفراد، والمؤسسات والمجموعات والأمم الحق في تعريف الثقافة بالطريقة التي تستجيب أحسن لحاجاتهم وظروفهم، فإن مجرد الاتفاق العالمي حول تعريف خاص للثقافة يبشر بنهاية مرحلة للغموض والإشكالية والاشتباه وسوء الفهم التي أحاطت بمصطلح الثقافة.

وعندما نضيف إلى ندوة مدينة مكسيكو ازدياد الوعي بأن الثقافة ليست خاصة بالجنس البشري فحسب، بل هي حاضرة الوجود في كل أرجاء الطبيعة، يتضح أن التعريف الأكثر بساطة للثقافة يصبح عندئذ كونها «رؤية عالمية بصفة عامة وكل منظم» بصفة خاصة[٨]. ومن ثم، تهتم الثقافة بالكيفية التي تنظم بها أجناس الكائنات الحية عموما، والجنس البشري خصوصا نفسها وتسيّر شئونها وتمركز نفسها في الكون. فهذا التعريف الكوني للثقافة هو تعريف يتلاءم مع الطبيعة الشاملة والطابع التكاملي للثقافة:

«الثقافة تدمج عناصر المعرفة في رؤية عالمية وتحدد إلى درجة كبيرة مواقف وردود الفعل إزاء أحداث الحياة كما أن الثقافة تمد الإنسان بإطار عام لحضوره الواعي في العالم وفي علاقته به[٩].

وأن ما هو صحيح نظريا بالنسبة للثقافة هو أيضا صحيح على مستوى الممارسة، كما يشرح ذلك بياربسكالون Pierre Pascallon:

تعريف الثقافة:

فانطلاقا من ذلك التصور الشمولي الكوني للثقافة ينبغي علينا أن نبحث عن صياغة تعريف مقبول للثقافة. فقد اتخذت خطوة أولية في هذا الاتجاه عندما اتفقت بإجماع الدول الأعضاء لليونسكو على التعريف التالي للثقافة؛ وذلك بمناسبة انعقاد المؤتمر الثاني حول السياسة الثقافية في مدينة مكسيكو في عام ١٩٨٢:

«ينبغي أن تعتبر الثقافة اليوم مجموعة السمات المميزة روحيا وماديا وفكريا وعاطفيا لمجتمع إنساني، أو مجموعة بشرية ما. فالثقافة تشمل إلى جانب الفنون والآداب، أنماط الحياة والحقوق الإنسانية، وأنساق القيم والتقاليد والعقائد»[٦].

إن الحجج لتبني هذا التعريف الرحب والملزم للثقافة قد أكّد بقوة أكثر في وثائق التخطيط وأوراق العمل التي أعدت للعقد العالمي للتنمية الثقافية:

فالتفكير في موضوع التنمية الثقافية أدى في نهاية الأمر بالمشاركين في ندوة مدينة مكسيكو إلى التوصل إلى تعريف للثقافة يكاد يكون جديدا تماما.

فالحاضرون في هذه الندوة، وبدون نسيان أهمية الخلق والابتكار في النشاطات الفكرية والفنية، رأوا أنه من المهم إفساح مفهوم الثقافة؛ لتشمل الأنماط السلوكية، ونظرة الشخص لنفسه، وللمجتمع وللعالم الخارجي، ومن هذا المنظور، فالحياة الثقافية للمجتمع يمكن أن تعبر عن نفسها عبر طرق حياتها وكينونتها، وعبر إدراكاتها للذات وللغير، وعبر أنماط سلوكاتها وأنساق قيمها وعقائدها[٧].

إن التزكية الرسمية لهذا التعريف الواسع للثقافة من طرف البلدان الأعضاء في اليونسكو تشير إلى بداية عهد جديد في الفهم العام والمختص لطبيعة ومعنى الثقافة. فهذا لا يحدث قطيعة فقط مع التقليد الطويل لتعريف الثقافة في مصطلحات جزئية ونخبوية بدلا من تعريفها تعريفا شموليا ومساواتيا egalitarian، بل إن تلك التزكية تؤكد ما توصل إليه العدد الهائل من بحوث العلماء والذي مفاده أن الثقافة تهتم حقا بالكل، وكل ما يحتويه ذلك الكل. ومن الموجه للنظر في هذا

مجال الثقافة :

في واضح مما سبق ذكره أن مجال الثقافة مجال ضخم. ففي أوسع تعريف لها وأكثر معانيها انتشارا لا تهتم الثقافة بالكل الكوني فحسب ومن ثم بالوحدة الضمنية لجميع الأشياء بل تعتني أيضا بالعلاقات الداخلية التي توجد بين الأجزاء المكونة للكل الكوني. فمن بين العلاقات الداخلية المتعددة، والتي تشترك في تكوين الكل الكوني هناك خمس منها على الخصوص تشد انتباهنا أكثر؛ نظرا لأنها ترتبط ارتباطا حميما بالحالة الكاملة، وبالوضع الإنساني، وبعالم المستقبل. فهذه العلاقات الداخلية الخمس هي:

علاقة الناس مع أنفسهم، وبعضهم مع بعض، ومع الأشياء، ومع الأنساق التي يصنعونها، ومع البيئة الطبيعية، ومع العالم الماورائي . فعلاقة الناس مع أنفسهم تشمل أعمق الحالات النفسية والرفاهية للناس. أما علاقة الناس بعضهم مع بعض فهي تتمثل في الروابط الموجودة أو غير الموجودة، بين الأقارب والأصدقاء، والجيران والغرباء، والمجتمعات المحلية والبلدان والقارات. وبالنسبة لعلاقة الناس بالأشياء والأنساق التي هي من صنعهم فهي تشمل الموروث الثقافي للإنسانية، وكذلك السياسات والممارسات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والجمالية، والعلمية، والتقنية التي يخلقها الناس لتسيير حياتهم.

وفيما يخص علاقة الناس بالبيئة الطبيعية فهي تقترن بارتباطهم بكل أنواع النبات والحيوان والمعادن التي يسكنون معها هذا الكون. وأخيرا، فإن علاقة الناس بالعالم الماورائي تتمثل في ارتباطهم دينيا ولاهويتا وروحيا بالقوة العليا أو بالإله.

وفي عملية إفساح وتعميق فهمنا الجماعي لتلك العلاقات الداخلية يبدو أنه من الواجب أن يكون للثقافة الحرية والمرونة لتستفيد من الرؤى الجديدة والمعرفة والحكمة لكل ميادين الدراسة. ولكي يتحقق ذلك بالفعل فإن على الثقافة أن لا تركز

يجب على كل ثقافة، وكل شعب، وكل مجتمع (أن يكتشف) ويكتشف من جديد كونيته الداخلية، ويجب أن يكون قادرا على وضع نفسه في عالم معروف الهوية، وأن يجد لنفسه المبدأ المنظم لعالمه[١٠].

وهكذا فإن الدور الحاسم الذي تقوم به القيم وأنساق القيم بالنسبة لتحديد الطريقة التي تتشكل بها الرؤى العالمية والكل المنظم في الثقافات المختلفة يصبح ظاهرا لِبَوِّهِ:

فالتدرج الهرمي بين القيم في كل ثقافة هو المبدأ للانسجام الداخلي للثقافة والذي يربط العناصر المتعددة للثقافة بعضها مع بعض، ويخلق منها كلا منظما متكونا من أجزاء متعاضدة. فالذي يمثل العمود الفقري لكل ثقافة هي الاعتقادات حول الكون، والإنسان، والطبيعة، وعلاقة الإنسان بالعالم الخارجي، وموقعه في الكون، ومعنى الحياة الإنسانية، والقيم السامية، والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر ...

فمجموع تلك الاعتقادات تكون في كل حالة نسقا فريدا ومميزا مختلفا من ثقافة إلى أخرى على الرغم من أن بعضاً من عناصره تتشابه في ثقافات مختلفة[١١].

إن الدور الذي تقوم به الفلسفة، والأسطورة، والدين في عملية خلق رؤى عالمية مختلفة دور ذو أهمية خاصة ، وذلك حسب ندا سفوبدوكيك Nada Srobdokic مدير معهد التنمية والعلاقات الدولية:

فالتدرج الهرمي الخاص بالثقافة هو عبارة عن شيء فطري في كل ثقافة، ونسق، وقيم. ففي معظم الثقافات، مثلا يمثل الدين، أو الأساطير المفتاح لفهم النظام الترتيبي للقيم. فهذا التدرج الهرمي يمكن أن يكون مستندا على فكرة المبدأ الأول (الأساطير حول أصل العالم، والنار والماء، وأصل القبيلة... إلخ) أو على فكرة القيم السامية (الله ومبدأ محافظة المجموعة على نفسها... إلخ)[١٢].

المجتمعات المحلية أعمالها بحيث يستطيع ساكنوها أن يتمتعوا بمستوى مقبول من الدخل والتشغيل والتعليم والترفيه والفن؟ كيف يمكن للبلدان أن تخطط نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية بحيث يستطيع مواطنوها أن يتمتعوا بقدر كبير من الرفاهية المادية والأمن الاجتماعي ويعيشوا كذلك بكرامة وفي انسجام وحرية؟ كيف يمكن للعالم أن ينسق علاقاته الدولية بحيث يمكن تحاشي حروب هدر ثرواته وتأمين بقائه في عصر يعرف مستويات لا سابق لها من التلوث والعنف والتهري البيئوي والتهديد المستمر؟ كيف يمكن للكوكب الأرضي أن يرتب تنظيماته بحيث يمكن التقليل أو القضاء قدر الإمكان على ظواهر الجوع، وسوء التغذية، والموت جوعا، والقتل الجماعي، وانتهاكات حقوق الإنسان، والموت المبكر؟ كيف يمكن رتق الهوة بين الأمم الأفريقية، والأسيوية، والأمريكية اللاتينية من ناحية، وأمم أمريكا الشمالية، وأوروبا من ناحية أخرى؟ وكيف ينبغي أن ينظم البشر شئونهم بحيث يستجاب لقيم وعقائد وتقاليد وحقوق ومسئوليات كل الشعوب ويتوصل إلى تنظيمات مناسبة مع أجناس الكائنات الأخرى، ومع الطبيعة ككل؟ تلك هي القضايا العملية المحسوسة والملحة التي تعتني بها الثقافة. وهي قضايا لها أكبر جدوى ومعنى بالنسبة لمستقبل الإنسانية.

فواضح من الطبيعة العميقة والملحة لهذه المسائل أن الثقافة تهتم بكل ملامح الحياة . وأنه في الواقع مستحيل التفكير في ميدان نظري وتطبيقي أكثر انشغالا بالواقع من الثقافة . وهكذا، فالثقافة تهتم بجانبي معادلة الواقع: السلبي والإيجابي، الماضي والحاضر والمستقبل، وكذلك المشاكل والإمكانات. إن اهتمام الثقافة يشمل المحلي والعالمي والفردي والجماعي والمادي والروحي والجمالي والفلسفي والعلمي والتقني. وربما هذا هو السبب الذي جعل بيسركا سفجيكانين Biserka Cujeticanin رئيس تحرير مجلة Culturelink يلاحظ أخيرا أن تنمية العالم أصبح ينظر إليها أكثر فأكثر على أنها «تنمية الثقافة والحضارة»[١٣].

فقط على الكل الكوني، ولكن أيضا على التفاعلات المعقدة التي توجد بين الأجزاء المكونة للكل الكوني.

إن هذه الحقيقة تجعل من الثقافة ميدان تنظير وممارسة مختلفا جدا عن ميادين التنظير والممارسة في علوم الاقتصاد، والسياسة، والنفس، والفيزياء، والكيمياء، والفلك. فبينما تعد هذه العلوم علوما متخصصة تسعى عموما لتحسين فهمنا بالعمليات الداخلية التي تحدث في بعض الأجزاء الخاصة للكل، فإن الثقافة هي ميدان شمولي يُمكّن من تحسين فهمنا لبنية وعمل الكل نفسه. ومن ثَمَّ ، ليست الثقافة في الحقيقة جزءا من شجرة المعرفة بل هي تمثل جذور وجذع شجرة المعرفة. فوجودها يعطي فرصة تسمح من جهة بالنظر وفهم وتقييم الأجزاء المكوّنة للكل. ومن جهة ثانية، فالثقافة تمثل الجسر المتعدد الرؤى بين داخل التخصصات المعرفية. فمنذ عقود عديدة خلت أكدت عالمة البيئة الكبيرة بربرا وارد Barbara Ward «أن أهم اكتشاف بيئوي يتمثل في أن كل الأشياء مترابطة». وتساءلت هذه العالمة «ولكن إذا كانت كل الأشياء مترابطة، فأين يوجد يا ترى الخيط الذي يمكن أن يهدينا سواء السبيل داخل هذا الكل المحير؟» فواضح الآن أن الثقافة هي ذلك الخيط المرشد. وربما لهذا السبب نظر كل من عالمي الأنثروبولوجيا الفريد كروير وكلايد كلوكهوهن Alfred Kroeber and Clyde Kluckhohn إلى الثقافة على «أنها أعلى الظواهر مستوى ... والتي يمكن تخيلها الآن في عالم الطبيعة»

موضوع الثقافة

فإذا كانت الثقافة هي المجال المُوَحِّدُ للتنظير والممارسة بكل معناه الواسع والشامل فلا يكاد يبقى إذن أيُّ شك بخصوص موضوع الثقافة. فهي بكل شفافية تهتم بالمسائل الأكثر أهمية وأساسية بالنسبة للبشرية. فكيف ينظم الأفراد شئونهم بحيث يستطيعون أن يعيشوا حياة خلاَّقة وبنَّاءة يحققون فيها ذواتهم؟ كيف تُسيِّر

والجماعية والقومية والدولية حتى بمن ربط تلك الشئون بمبادئ وممارسات الثقافة الأكثر حكمة وعمقا.

إذ إنه في نهاية المطاف، فالثقافة هي التي تُذكرنا أن التعبير بأكثر أمانة على المشاعر والعواطف والبحث عن التميّز والحقيقة والسمو والإبداع الفني والتعلم والاكتشاف العلمي، والتفاهم بين الناس والصداقة والحب هي أهم الأشياء في الحياة. وهي الأشياء التي يستمر ذكرها بعد أن نُسي كل شيء آخر. ولا تقلل تلك الأشياء بطريقة هائلة من استنزاف الموارد البيئية فقط، ومن ثم تقوم بدور رئيس في إيقاف أزمة البيئة التي تهدد حاليا كل المعمورة، ولكنها تساهم أيضا في السعادة وتحقيق الذات في الحياة، ومن ثم تحل مشكلة سوء النمو.

موروث الثقافة

فعلى مستوى عملي، يرجع تاريخ الثقافة إلى أولى الحضارات التي عرفتها البشرية. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن العثور عليها منذ ذلك الزمن في أي شكل استيطاني بشري. أما على مستوى نظري، فمسألة التعرف على أصول وجذور وموروث الثقافة تكتسي أكثر صعوبة. ويعود ذلك إلى كون أن الثقافة قد تغذت في أوائل مراحل نموها من فروع معرفية أخرى. ومن ثَمَّ، فمن الصعب جدا عزل الموروث والأصول والجذور المحدَّدة للثقافة. وفعلا، فإن الكثير من البحث المعتني والسبر المعرفي الرفيع المستوى سوف يكون مطلوبا منهما تحديد الأسس الفكرية الحقيقية والرواد الأوائل للثقافة.

ونظرا للوضع العالمي الحالي والاستشرافات المستقبلية، فإنه يصبح من الواجب الاستمرارية في هذا العمل. فإذا كانت الثقافة ستنهض بدور هي قادرة على القيام به في عالم الغد، فإن فهم كيفية تطورها في الماضي يصبح مطلبا

مركزية الثقافة

فمن الوجهة التاريخية، يمكن بسهولة إدراك قوة الثقافة في تحويل الواقع الإنساني والوضع العالمي. فحقب تاريخية كاملة مثل عصور الكلاسيكية، والنهضة والتنوير، والرومنطيقية ينظر إليها بشيء من القداسة والوقار بسبب التحولات الثقافية التي اقتربت بتلك الحقب.

ومن وجهة نظر معاصرة، تزداد قدرة الثقافة على تغيير حياة الشعوب والمجتمعات المحلية وشئون الأمم والعالم ككل اليوم وضوحا أكثر فأكثر. ونتيجة لذلك فمن الصعوبة بمكان الاختلاف مع المقتطف التالي:

«فالثقافة، ومهما كان تعريفنا لها، مركزية لكل شيء نفعله أو نفكّر فيه، إنها ما نفعل، والأسباب التي من أجلها قمنا بذلك الفعل. إنها ما نتمنى، وأسباب تخيلنا لما تمنيناه، إنها الشيء الذي ندركه والطريقة التي نعبر بها عنه. إنها الكيفية التي نعيش بها، والطريقة التي نتعامل بها مع الموت. إنها محيطنا والأشكال التي نتبناها للتكيّف معه، إنها العالم الذي أنشأناه والذي لا نزال ننشئه. إنها الطريقة التي ننظر بها إلى ذلك العالم، والدوافع التي تحفزنا على تغييره. إنها السبيل التي نعرف بها أنفسنا ونعرف بها بعضنا. إنها نسيج علاقاتنا الشخصية.إنها الصور والمعاني الذهنية التي تسمح لنا بالعيش معا في المجتمعات المحلية والأمم. إنها العنصر الذي فيه نعيش[١٤].

وعلى الرغم من الطاقة التي تملكها الثقافة لتحسين أساس الحياة هنا على الأرض على المستويات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والبيئية، والجمالية، والروحية نجد أنه لا يوجد إلى الآن اهتمام كافٍ بها في المجالات الخاصة والعامة والمهنية. فتحدي المستقبل هو إذن واضح ولا لبس فيه.

وذلك يقتضي إعطاء الثقافة مكانة قيادية في صُلب الشئون الفردية

Malonowski وميد Mead وفروبنيوس Frebenius وبنديكت Bendict وكروبر Kroeber ولنتن Linten وستراوس Strauss، ومن المؤرخين أمثال جيزرت Guizot ولمبرخيت Lamprecht وسبنجلار Spengler وهويزنجا Huizinga وطونبي Toynbee، ومن الفلاسفة والكتاب أمثال سوروكين Sorokin وإليوت Eliet وجراسا . Grasset ولا تقتصر الدراسة الجديدة للثقافة على مجرد البدء في قراءة أعمال هؤلاء العلماء وطلائعهم الفكرية، بل هي تنكب أيضا على آرائهم وأفكارهم وبُعد نظرهم ونتائج بحوثهم التي ينبغي أن نستوعبها لتأسيس الثقافة بوصفها مجالاً حاسماً للتنظير والممارسة في المستقبل(١٦).

فلهؤلاء العلماء دينٌ كبير علينا. فجهادهم من أجل الوصول إلى فهم ما هو بكل تأكيد أكثر ميادين البحوث عناء وصعوبة، وهو يعتبر بحق جهدا نموذجيا. فحتى التعرف البسيط على حياتهم وأعمالهم سوف يكشف أن كلامهم بطريقته الخاصة قد عانى من مشقات ضخمة، وعمل في ظروف لا تحصى صعوباتها لكي يفهم كيف تجري في الحقيقة عمليات الثقافة والثقافات. فبدون جهودهم الشجاعة والملهمة يصبح تقدم العقود القليلة الماضية في فهم الثقافة أمرا غير وارد.

فبينما كان لكل واحد من هؤلاء الرواد نظرياته الخاصة واهتماماته المفضلة، ومع ذلك يشترك كلهم في بعض نقاط التشابه والاعتقادات التي تجعل من الممكن توحدهم كمجموعة، وتعريفهم كرواد فكر لموروث ثقافة عظيم. فتلك الاعتقادات تتراوح من أقصى التعميم والذي يتمثل في اعتبار الثقافة ذات طبيعة شمولية، وفي أن الحياة الثقافية مركزية بالنسبة للبشر إلى أقصى التخصيص والقائل بمدى أهمية القيم الثقافية والطابع التطوري للتغيّر الثقافي. فالوقت الذي يقضيه المرء في دراسة هؤلاء وغيرهم من علماء الثقافة

واجبا لرؤية واضحة بالنسبة للتوجه الذي ينبغي أن تأخذه الثقافة مستقبلا. فهذا ينبغي أن يحول أيضا دون الاستغلال المؤسساتي والسياسي للثقافة. ونظرا للبروز السريع للثقافة كقوة فاعلة في الشئون الإنسانية والعالمية، فهناك الخطر المحدق دائما والمتمثل في أن الثقافة سوف تستغل ويُساء استعمالها أن لم تُؤخذ كل الاحتياطات المناسبة لتحاشي ذلك. وهذا يجعل الكشف وإلقاء الضوء على الموروث الفكري والعلمي للثقافة أكثر الأولويات إلحاحا في الميدان الثقافي اليوم.

فنظرة إلى الماضي تجعلنا نرى بسهولة أن الاهتمام بالثقافة كان تقريبا قد شغل كل عقول المفكرين والعلماء والفنانين والقادة الدينيين. ويتجسم ذلك واضحا في المؤلفات والأعمال الإبداعية لسقراط وأفلاطون وأرسطو وكونفوشيوس وعيسى وبوذا ومحمد وأغسطين ودافنشي وديكارت وجويت وهيجل وآخرين ولو أنهم لم يستعملوا مصطلح الثقافة في حد ذاته. وفي الواقع، فلم يكن ممكنا في حقيقة الأمر ظهور أسس نظرية للثقافة حتى القرن السابع والثامن والتاسع عشر عندما برز على الساحة الفكرية أشخاص «أمثال فيكو Vico وفولتير Voltaire وكْلام Klemوأرنولد Arnold

وبورخهاردت Burckharat وتيلور Tylorوسبنجلار . Spenger. فحسب كْلاَم، ففولتير، مثلا، كان هو الأول «الذي همش الحديث عن العهود الملكية ومجموعات الملوك والحروب ليبحث في ما كان يعتبره جوهريا. أي الثقافة كما تتجلى في الأعراف والتقاليد والعقيدة ونظم الحكم»[١٥].

فالأعمال الفكرية الريادية لهؤلاء العلماء مهدت كثيرا الطريق للأجيال اللاحقة لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والمؤرخين والفلاسفة والفنانين المهتمين أولا وأكثر من أي شيء آخر بالأسس النظرية والحقائق العلمية للثقافة. فكان من بين أهم هؤلاء علماء الأنثروبولوجيا أمثال بواس Boas ومالنوسكي

والأجناس الأخرى وكل عالم الطبيعة. ويفيدنا علم البيولوجيا بطبيعة العمليات العضوية، وكذلك بالطابع الحركي للتغيّر الثقافي. ونستفيد من علم التاريخ كيف يتم نظام الثقافات عبر الزمن، وكذلك كيف تنهض وتسقط الحضارات. وبالنسبة لعلم الجغرافيا فهو يمدّنا بمعلومات حول نظام الثقافات عبر الفضاء، وكذلك حول طبيعة الاستيطان البشري. وأخيرا، تكشف لنا الفنون عن طبيعة الإبداع والسعي للتميّز والبحث عن السمّو[١٧].

ومن الواضح أن كلا من هذه التخصصات المعرفية، والكثير الآخر منها الذي يصعب إحصاؤها هنا، يحتوى على عناصر ضرورية لبناء اللغز المعقد والمتشابك للثقافة. وبالإضافة إلى ذلك فهي كلها ذات أهمية حيوية لإنشاء منهجية ملائمة للثقافة كمجال تنظير وممارسة ذي أهمية منفردة بالنسبة للمستقبل.

وفي علمية صياغة هذه المنهجية، فإن هناك هدفا ينبغي أن يَسْمو على البقية. فالمنهجية يجب أن تكون فريدة وأصيلة بالنسبة للثقافة. فبدل أن تكون مجرد تطعيم للثقافة من تخصصات معرفية أخرى، فالمنهجية يجب أن تتناسب مع الطبيعة والهدف والموضوع الخاص بالثقافة. ولإ نجاز ذلك بكل فاعلية، فان الكثير من الفكر الإبداعي والجهد البحثي المعرفي يجب أن ينصرفا إلى صياغة هذه المنهجية ووضعها موضع التطبيق.

وفي عملية إرساء هذه المنهجية يجب أن يتوافر عدد من التطورات. أحد هذه التطورات يتمثل في تكوين تصنيف لعدة أنواع من الثقافات. سوف يجعل هذا ممكنا تصنيف وتحليل الثقافة تبعا لبُناها وخصائصها المختلفة. فالرجوع هنا إلى الأعمال الفكرية البارزة لبعض العلماء أمثال بيتريم سوركين، وروث بنيديكت، وكليفورد جيرتز، ونورث روب .Northrop F.S C وإدوارد هالEdward Hall

ليس هو فرصة فقط للإثراء الفكري، بل هو أفضل مناسبة للفهم الحقيقي للثقافة كميدان محدد للتنظير.

منهجية الثقافة

فمن بين كل المجالات حيث تتطلب الثقافة كميدان تنظير وممارسة التوضيح، ليس هناك شيء أكثر إلحاحا في نهاية الأمر من مناهج وتقنيات التحليل الثقافي. وبالنسبة للمعنى الشامل الذي نستعمله هنا حول الثقافة، فإنه من الواضح أن مناهج وتقنيات التحليل الثقافي لا تزال في حالة بدائية جدا من التطور.

فبينما تُعد كل ميادين الدراسة قادرة على القيام بمساهمة بناءة في عملية توضيح مناهج وتقنيات الثقافة ألا أنه من المحتمل أن علوم الفلسفة والكوسمولوجيا، والدين، والأنثروبولوجيا، والأسطورة، والاجتماع، والبيئة، والبيولوجيا، والتاريخ، والجغرافيا، والفنون تقوم بأكبر دور في ذلك. وليس هذا من باب الصدفة، كما أشرنا سابقا، إذ إن هذه التخصصات هي التي كان لها أكبر الأثر الفكري والتاريخي على الثقافة.

فمن الفلسفة، وعلم الكوسمولوجيا، وعلم الإلهيات يأتي بُعد النظر حول الكل، وكذلك حول العلاقات المعقدة التي توجد بين الأجزاء والكل. ويساهم الأنثروبولوجيا، والأسطورة في مدّنا برؤية معرفية حول المبادئ والقيم والأنماط والممارسات الثقافية الرئيسة. أما علم الاجتماع فيزودنا برصيد معرفي حول الرموز والعقائد المشتركة، وكذلك حول الوسائل اللغوية والاجتماعية والتواصلية التي تربط الثقافات بعضها مع بعض. ومن علم البيئة نتعلم حول عملية التفاعل القائمة على قدم وساق بين الجنس البشري

عبارات مثل «الأنثروبولوجيا الثقافية»، و«علم الاجتماع الثقافي»، و«علم الاقتصاد الثقافي» و«البيئة الثقافية» و«التاريخ الثقافي» يُضيّق من نشأة الثقافة كميدان متميّز للتنظير والممارسة؛ وذلك بالاستنتاج أن الثقافة هي مجرد ملحق، أو فرع لتخصصات معرفية أخرى. فمثل هذا الوضع يميل إلى تهميش الثقافة وجعلها ليس إلا أكثر بقليل من فرع صغير من شجرة المعرفة. وعلى مستوى ثان فكلما ظلت الثقافة سجينة لنسيج تخصصات معرفية أخرى، فإنه من المستحيل تأسيس منهجية تكون بحق فريدة وأهلية بالنسبة للثقافة – أي إن منهجية ما يمكن لها أن تستند كثيرا على تخصصات معرفية، أمثال: الفنون، وعلوم الأنثروبولوجيا، والاجتماع، والبيئة، والاقتصاد، والفلسفة، والتاريخ لكنها تحتفظ في نهاية الأمر بطابعها المميّز وهويتها المستقلة.

وأخيرا، فربما أن أهم الأشياء جميعا في ذلك هو أن الاعتماد على التخصصات المعرفية الأخرى يعوق الثقافة عن تحقيق مصيرها الحقيقي والمتمثل في كونها مساهما رئيسا في بناء عالم أكثر عدلا واستقرارا وإنسانية.

إن ظروف العالم المتسارعة التغيير تُشير إلى أنه قد حان الوقت لكي تخرج الثقافة من تحت ظل التخصصات المعرفية الأُخرى وتصبح ميدان تنظير وممارسة مستقل بنفسه. إذ إنه فقط عندما تصبح الثقافة سيدة في بيتها يمكن لها أن تكون قادرة على توسيع وتعميق مستويات فهمنا، وكذلك العمل كقوة رئيسة لتحسين وضع الإنسان وتقدم العالم في المستقبل. فليس هناك من شيء أكثر تناسبا وتزامنا من ذلك، ونحن نهيئ أنفسنا لمجابهة التحديات المعقدة والإمكانات غير المتناهية للقرن الواحد والعشرين.

وسنو C.P.Snew ووليام أروين طومسنWilliam Irwin Thompson وأرشي باهن Archie Bahn وكلود ليفي ستراوس Claude Iévi-Strauss، قد يثبت أنه يعين في هذا المجال. أما التطور الثاني فهو يتمثل في تكوين مجموعة حقيقية من المؤشرات الكيفية والكمية قادرة على تقييم درجة التقدم الثقافي، وكذلك التعرف على اتجاه وطبيعة التغير الثقافي. فالاستعمال هنا لنظام المؤشرات والأنشطة المستندة على معطيات بيانية، والذي اقترحه ألفين طوفلر Alvin Toffler والمبني من طرف أوجيستان جيرار Augustin Girard قد يمثل نقطة انطلاق مناسبة[١٨]. وبالنسبة للتطور الثالث فهو منهجية توضيحية للمفاهيم مثل التنمية الثقافية والسياسة الثقافية، والهوية الثقافية، والسيادة الثقافية، والعلاقات الدولية الثقافية. وربما يمكن اعتبار هذا الجانب من أكثر المتطلبات إلحاحا؛ وذلك نظرا للأهمية المتزايدة والمتسارعة لهذه المفاهيم لعالم المستقبل . ومن أجل تحقيق هذه التطورات ينبغي الاعتراف الكامل بالإنجازات الريادية للعدد الهائل من أجيال باحثي وعلماء الثقافة، وكذلك بالمساهمات الأولية للمؤسسات، مثل: اليونسكو، ومجلس أوروبا The Council of Europe و Mediacult و Culturelink، ومؤسسات أخرى.

ميدان الثقافة:

لا يُنتظر أن تحقق الثقافة كل إمكاناتها وتقوم بمساهمتها كاملة دون أن تصبح ميدان تنظير وممارسة مستقلّ بذاته. وعلى الرغم من أن الثقافة قد كسبت كثيرا من علاقتها التاريخية الغنية، وارتباطاتها الفكرية مع التخصصات المعرفية، أمثال: الفنون، وعلوم الأنثروبولوجيا، والاجتماع، والاقتصاد، والبيئة، والتاريخ، فإنه أصبح بازدياد أكثر جلاء بأن ذلك يطرح عددا من المشاكل الجدية للثقافة. فعلى مستوى أول، إن الاستمرار في استعمال

Inc. New York. 1973. F.S.C. Northrop. The Meeting of East and West: An Inquiry Concerning World Understanding. The Macmillan Company. New York. 1946. Edward Hall. The Silent language. Anchor Press / Doubleday. Garden City, New York. 1959. C.P. Snow. The Two Cultures and the Scientific Revolution. Cambridge University Press. Cambridge. 1959. William Irwin Thomson. At the Edge of History: Speculations on the Transformation of Culture. Harper and Row Publishers. New York. 1971. Archie Bahm. Comperative Philosophy: Western, Indian and Chinese Philosophies Compared. World Books. Albuquerque. 1977.

18. Alvin Toffler. z The Art of Measuring the Arts{. Annais of the American Academy of political and Social Sciences. Annais 369 - 374. American Academy of Political and Social Sciences. Washington. 1967. pages 141 - 155. Augustin Girard z Cultural Indicators and Cultural Policy ; Research and Experience z in jiri Zuzanek (ed) Social Research and Cultural Policy. Otium Publications. Waterloo. 1979. pages 97 - 109.

الحواشي

1. Alfred Kroeber and Clyde Kluckhohn. Culture: A Critical Review of Concepts and Definitions. Vintage Books. New York. 1952.

2. D. Paul Schafer. The Character of Culture. World Culture Projet. Scarborough. 1989.

3. Sir Edward Burnett Tylor. The Origins of Culture. Harper and Row, Publishers. New York. 1958. page 1. (emphsismine).

4. D. Paul Schafer. The Character of Culture. op. cit. pages 3-32.

5. Unesco. CultureÅ: from Cosmos to Daily life. CULTURES Volume VII. Number 2. 1980. also see D. Paul Schafer. The Cosmological Conception of Culture: Canadian Culture Used as a Case a Study for IIlustrative Purposes. World Culture Project. Markham. 1992.

6. Unesco. Mexico Declaration on Cultural Pociciers. Unesco Paris. 1982. A close examination of this definitions Paris. Reveals that it is really areformulation of Tylor's famous anthropological definition

7. Unesco. A Pratical Guide to the Decade for Cultural Development 1988 - 1997. Unesco. Paris. 1987. page 16.

8. B. Paul Schafer. The Cosmological Conception of Culture; Canadian Culture Used as a Case Study for IIlustrative Purposes. op. cit. World Culture Project. Markham. 1992.

9. Jerzy A. Wojciechowski. zCultural Pluralism and the Modern State{ in Unesco.Cultures. Volume IV. Number 4. 1997. the Unesco Press and la Baconniere. Unesco. Paris.1997. page 54.

01. Pierre Pascallon. zÅThe Cultural Dimension of DevelopmentÅ{ Intereconomics. January-February 1986. Washington. 1986. Page 7. (insert mine)

11. Jersy A. Wojciechowski. zcultural Pluralosm and the Modern State{. op. cit. Page 54.

12. Nada Svob-Dokic` . zCulture as a System: Identity, Development, and Communication. zRazvoi Development International. Volume VI. Number 2-3. July-December 1991. institute for Development and International Relations. Zagreb.1991 Pages 302-303.

13. Biserka Cvjecticanin. REditorialS¢ and RCultural Change: Global Challenge and Regional ResponseS¢. Razvoi Development International . ibid. page 193 and pages 319 - 329.

14. Bernard Ostry. The Cultural Connection . Mc Clelland and Stewart. Toronto. 1978. page 1.

15. Robert Lowie. The History of Ethnological Theory. George G. Harrap and Co. Ltd. London. 1937.

16. For a list of selected writings of these and other cultural scholars, see the list of readings attached to this paper.

17. See, for example, Pitirim. Social and Cultural Dynamics: A Study of Change in Major Systems of Art, Truth, Ethics, Law and Social Relationships.
Extending Horizons Books. Porter Sargent Publishers. Boston. 1975. Ruth Benedict. Patterns of Culture. Routledge and kegan Paul Ltd. London. 1963. Clifford Geertz. The Interpretation of Cultures. Basic Books